

وَإِنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ عَلَيْنَا

(القلم: 4)

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم
Prophet Mohammed Peace be upon him

{يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً}
طال أمد الجahليّة، وامتدت ظلالها البائسة لغمر وجه البشرية، وتمّ الكون بما فيه ومن فيه، واشتاقت الأرض التي أظمأتها قرون الجفاف الإنساني والقيمي، إلى غيث الرحمة والعدالة الربانية، واستطالت الأيدي القاسية والقلوب المتحجرة الخاوية من منابع الرحمة، على المستضعفين في الأرض، وغدا الكون الذي أراده الله بالاستخلاف موطن عدل وعبادة وتوحيد وعمل متمر ومساواة وتفكير وإبداع.

غدا مسرحاً لكل أنواع الظلم والهمجية والتناحر، وتآل الفراعنة المتعاقبون في كل زمان ومكان، وفق شريعة الغاب التي تنتعش وتزدهر معتقداتها، وتسود قوانينها في كل زمان ومكان يعطّل فيه شرع الله، وتحارب فيه فطرته، وتنحي فييه تشريعاته العادلة الرحيمة، وأصبحت الحياة على وجه الأرض جحيناً لأولئك البائسين، الذين وضعّهم قوانين الجahليّة الخرقاء في ذيل الطائفة البشرية، وأحالّت آدميّتهم مجالاً لتجريب كل أنواع الاضطهاد والتفرقة والامتهان، فالغلبة هنا لذوي القوة والبأس، والتشريع فيها يتم وفق مصلحة الأقوى، والمنهج المتبّع هو منهج الآباء الغابرين، ولو كانوا لا يعقلون ولا يهتدون، والعصبية

العمياء حكم وفيصل وقانون، والمال والحياة الكريمة وقف على الذين يمتلكون وسائل تحصيلها، أياً تكن تلك الوسائل والآليات والنظم التي يتم بها ذلك التحصيل.

والنفس البشرية تقدر قيمتها بالشرف الاجتماعي والغنى المادي، والاستقواء القبلي أو الطبقي، فالحياة في عرف تلك المظلة الباغية، حق لأولئك الذين يقدرون على مقوماتها، ومقوماتها سلسلة لا تنتهي من الشرائع القاصرة، القائمة على تحديد العقل والرحمة والعدل والإنسانية، فهي جاهلية، ظلامية، ظالمة، منتهى، نفعية بكل معنى تحمله هذه الكلمات.

فأي شقاء إذن تحياه البشرية، وأي ظلام تغرق فيه الأرواح، وتسترق في الأبدان، وأي ضنك يستعبد النفوس ويرهقها؟ وفي مكة الغارقة في الوثنية والجهل والعبودية الجائرة، يتاذن ربنا الرحيم بأن تنطلق أولى مشارق النور الإلهي، وأن تنهل أول قطرات الغيث السماوي، وأن تناسب نسائم الفجر الندية لتمسح تلك الوجوه، التي نسيت آدميتها، ولم تعد تدرى من أي صنف هي بين المخلوقات، وفي مكة أيضاً بيت الله المحرم، تصفط فيه وحوله مئات الأصنام المسندة، تعبد من دون خالقها، وتقصد بالطلب من دونه، وهي لا تملك الإجابة، وتذبح لها القربات من دونه، وهي لا تفقه معنى التقرب، ويتمسح بها ويكيي أمامها ذو الحاجة الملهوفون من دونه، وهي جامدة لا تدرك معنى الشكوى ولا تحس دفء اليد التي تتبرك بها ولا تشعر بانسياب الدمعة الحارة، وهي تنسكب عليها.

وفي مكة كما في كل بقاع الأرض ظلم وقسوة وشرك، ورقّ قاس أليم، وفي ترابها كل يوم تدسّ أجساد صغيرة، لم تلامس دفء حضن أمهاها، ولم تطلق في وجوه آباءها أولى ابتسامتها، ولم تبصر عيونها الشمس بعد، ولم تدرج أولى خطواتها نحو الحياة بعد، أرواح تدفن حية، بذنب لم تترفه وجريمة هي منها براء، وعيوب هو في الأصل ميزة لطيفة، فذنبها أنها أنثى، وهي في عرف الرعونة الجاهلية، مجلاة للفقر والعار والمذلة، فأبشرى أيتها الأرواح التي ناحت عليها قلوب الأمهات المكلومة دهراً، أبشرى فالرحمة والحياة والانطلاق الحرّة والكرامة قادمة إليك مع بشائر الفجر القادم في ربيع الأول.

يوم يأنّ الله بولادة نبي الهدى، ورائد المساواة، وحامل مشعل النور إلى الأرض، ليحيّلها مكاناً صالحاً للحياة مشرقاً بنور الله وشريعته وفي مكة أيضاً، وفي ظلال الكعبة المشرفة، يطوف عبد المطلب حاملاً بين يديه خير مولود ولد على وجه البساطة، يطوف به حول البيت العتيق، وهو لا يدري أن هذا البيت سيكون قبلة لهذا المولود، حين يبعثه الله نبياً رسولاً، ولأمته التي ستقام بها أركان العدل، وسيعم منهج الله العادل مشارق الأرض ومغاربها، بجهادها ونفترتها في سبيل الله، وهذا هي الأيام تمر، ومحمد - صلى الله عليه وسلم - يرى في مكة العجب العجاب، ويرفض شرك أهلها، وينفر من استرقاء أرواح مستضعفها، ويحاول قدر استطاعته أن يواسى المظلوم، ويعين الكل، ويطعم الجائع، ويصلّي الرحيم، ويعين على نواب الزمن من أصيب بها، وهو الصادق الأمين الحكيم، يقصده كل طالب حاجة ملهوف، وهو يرى ويسمع ويستذكر مظالم الجahلية وشرائع الفراعنة.

ولكن أتى له أن يقدر وحده عليها، ولأنك يا محمد خلقت لتكون نبياً، ومصلحاً، وهادياً، فقد صنعت على عين ربّك وجبلت على مكارم الأخلاق، وها أنت تتلقى وهي ربّك، ورسالتك، وتنادى بأنك رسول الله إلى الناس كافة، فكيف ترى ستكون الردود على رسالتك؟

وأي مشقة تنتظرك وأي صبر وثبات ستراه الدنيا منك؟ وأي رضا سيراه الله من قلبك؟ **{إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي، لك العتبى حتى ترضى}.**

وال القوم في مكة سادرون بغيهم، ماضون مقتفيون على آثار آباءهم، لا يرغبون في تغيير ملتهم، ولا يقبلون بجاهليتهم بديل، ولكنك تصدع بما تؤمر وتمضي قدماً، تتبعك الأرواح المعذبة التي شقيت بتلك الجahلية قرونا طوال.

لقد كلفك ربّك الرحيم برسالته الرحيمة، ووصفك بالرؤوف الرحيم، فكيف لا تكون رحيم؟

وكيف تتوقف عن عناء المحاولة للتغيير منهج ظل لقرون وقرون ديناً يدين به كل أهل الأرض، وقانوناً سائداً لا يقبل الجدال،

وتواجهك قوى الجهل والظلم، بالصدود والإيذاء والعدوان، وتحاربك ومن تبعك، ويشردونكم ما بين الشواطئ البعيدة والمهاجر الغريبة وأنت صابر محتسب، ترفض المساومة على عقيدتك وشرعك التي ائتمنك الله عليها {يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته}

ولا والله ما أنت بالذى يخون الأمانة وينكس على عقبه، ولا أنت بمن يقبل بدليلا عن دين الله {والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه}

سيدي يا رسول الله، عليك أزكي وأطيب صلوات الله، جئتنا بالهدى ودين الحق لتخرجنا من الظلمات بإذن ربنا، وحملت راية الحق سنين ملأتها عدلا وفتورا وصبرا وجهادا ورحمة، وكنت بنا رؤوفا رحيمينا علينا حريصا، ولنا مثلا يحتذى، وقائدا يقتدى به، وإماما يهتدى به، وعلم رحمة نختال به على من سوانا، من أهل الجهالة ودعاة الانحطاط الإنساني، وتظل فينا أبد الدهر سيدا، وقائدا ونبيا ورسولا، ونؤمن بقول الله تعالى فيك {يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منير}

المصادر: